دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

# حاجتنا إلى المسيح

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

# حاجتنا إلى المسيح

الأب متى المسكين

أيقونة قبطية من القرن السادس تمثل الرب يسوع المسيح والقديس مينا، و يلاحظ كيف يضع الرب يده اليمنى على كتف القديس اليمنى بمودة فائقة. وهكذا يكشف الفنان القبطي عن عمق الوجدان القبطي في تفهم العلاقة التي تربطنا بالله. وقد وُجدت هذه الأيقونة في دير باو يط بالقرب من ملوي بصعيد مصر. وهي من روائع الفن القبطي الخالص ومن الأيقونات الفريدة المحبوبة لدى فناني الغرب ... وهي محفوظة الآن بمتحف اللوفر بفرنسا.

# حاجتنا إلى المسيح

□*□*□

إن أعظم الإختبارات التي لفتت نظري بشدة في بكور حياتي المسيحية، هو أنني حينما أشعر بحاجتي إلى أشياء كثيرة تنقصني في معاملاتي مع الناس أو الكنيسة أو الرهبان، يبلغ بي الضيق والألم والحزن مبلغاً شديداً يُضعف من نشاطي وخدمتي وتأثيري في الآخرين، ولكن بمجرد أن أقترب من شخص يسوع ربي وأُحسّه وكأنه آتٍ من بعيد بعد غيبة أكون أنا دائماً السبب في طولها أو قصرها، أقول حينما أستشعره يقترب مني، يطفر قلبي فرحاً و ينجمع عقلي مرة واحدة فيسقط عني كل إحساس بحاجاتي الكثيرة وعَوَزي ونقصي، و يرتفع المسيح فوق أُفق حياتي كلها. حينئذ أراه هو أكثر من كل حاجاتي وأُحس بملئه يفيض ويجرف حياتي في تيار حبه بتسليم يفوق العقل.

كذلك و بنفس المقدار والقوة، حينما كانت تعصف بي أفكار كثيرة من جهة معاملات الله أو عنايته على المستوى الخاص أو العام وتضيق نفسي في داخلي جداً حتى الإختناق، لأني أود الله دائماً أن يظهر متفوقاً على كل المستويات: مستوى الرحمة تارة ومستوى العدل والتأديب تارة أخرى، مستوى الأُبوَّة الحانية مرة ومستوى السيادة والنقمة مرة أخرى، فأظل تتجاذبني المشاعر المتعارضة دون أي راحة أو سلام، ولكن بمجرد أن أستشعره يقترب مني تهدأ نفسي في الحال مرة واحدة وتسقط عني جميع التساؤلات والهموم، و يظهر المسيح متفوقاً جداً على كل موازين تفكيرنا سواء كانت من جهة رحمتنا أو عدلنا، أُبوَّتنا أو سيادتنا جميعاً!... وفي هذه اللحظات

كثيراً ما يُعرِّفنا المسيح بسرِّ مشيئته.

بهذين الإختبارين علمت يقيناً أن المسيح هو حاجة حياتنا الوحيدة التي تنقصنا وأننا إذا بَعُدْنا عنه ازدادت حاجاتنا إلى أشياء كثيرة من هذا العالم، وازداد قلقنا جداً من جهة مصير الأمور الخاصة والعامة في حياتنا.

فلماذا يظهر شخص المسيح هكذا كأنه ملء كل شيء!!

والجواب الواحد الوحيد الذي يرد مرة واحدة على عشرة آلاف سؤال، أو على وجه الأصح، يلغي بوجوده كل سؤال، الجواب على ذلك: يلزمنا أن ندرك أن البشرية تجمع في كيانها عالمين متناقضين، عالم المادة وعالم الروح. وقد يبدو هذا الجمع نوعاً من الشراء المدهش في الطبيعة البشرية، ولكن ثمنه فادح للغاية. فالمُثُل العليا كلها التي تأتي من عالم الروح المنبثِّ في كيان الإنسان يقابلها واقع مادي متهالك في حياة الإنسان قد يصل إلى أمثلة غاية في الإنحطاط والحقارة. فقد يقتل الإنسان أخاه من أجل لقمة العيش، أو يبيع ميراثه السمائي بأكلة عدس! هذا التوتر والتمزق الكائن في صميم كيان الإنسان بين المُثُل العليا للروح وواقع الجسديات ثبت بحسب تاريخ المدنيات والفلسفات والعلوم أنه لا يوجد أي أمل في إقامة حالة صلح «طبيعي بينهما» سواء بتدخل العقل أو الحكمة أو تهذيب المهارات أو مجرد الأوامر والوصايا الإلهية أو حتى التأديب بالعصى!! فبمجرد أن تعصف الغرائز، تمتد يد الإنسان إلى سلاح التمرد، التمرد على كل القيم الروحية، فيُصاب الإنسان بعمى روحي مؤقت يجعله يقترف أشنع التعديات حتى ضد نفسه!

هنا يظهر المسيح ببشريته الكاملة ولاهوته الكامل، المعجزة العظمى التي صالحت كل الواقع البشري ــ من جهة غرائزه وعواطفه وانفعالاته الجسدية في احتكاكه بالآخرين والزمن وحاجاته ونواقصه وتعثُّراته الخاصة ــ صَالَحَه مع

المُثُل العليا الروحية، أو بالحري مع الله نفسه، صُلحاً كاملاً ودائماً وأبدياً بآن واحد، وصُلْحاً عميقاً متجذراً في أعماق الإنسان نفسه، لأن كل ما للمسيح صار مِلْكاً للبشرية!!

هنا صار المسيح معجزة الإنسان ومعجزة الله بآن واحد، معجزة الإنسان في وصوله إلى عمق طبيعة الله ومعجزة الله في دخوله إلى عمق طبيعة الإنسان!! ولكي ندخل في نور هذه المعجزة، يلزمنا أن ندرك أن هذا الصلح لا يقوم على نظرية مهما تألفت النظريات ووُضع لها آلاف المجلدات، ولا على مجرد تنفيذ وصايا؛ فالصلح الذي أكمله المسيح هو صلح شخصي تم في المسيح نفسه، بقدراته هو وليس بقدراتنا نحن، وكانت نتيجة هذه المصالحة فائقة للعقل البشري. و يكفي أن ندرك أنها بمجرد أن تمت في تجسد المسيح وصلبه، شملت البشرية في شخص يسوع الذي يمثلها لدى الله الآب.

الإنسان تصالح مع نفسه، لأن الله تصالح في جسم بشريتنا الذي للمسيح، الذي أخذه منا. لذلك نقول بمنتهى الثقة والإختصار أننا تصالحنا مع الله في المسيح!! هذا الصلح شخصي للغاية، هو نوع من الوساطة الفريدة التي قام بها هذا الوسيط الوحيد ــ المسيح ــ بين الله والناس، فنشأت عنها قوة جديدة دخلت العالم، بل دخلت السماء!!

إن الصورة الأصغر والأضعف في مسيحيتنا هي محاولاتنا الفاشلة في تطبيق وصايا يسوع المسيح على مشاكلنا اليومية بدون الرب يسوع نفسه. أما الصورة الأقوى والأعظم فهي أن يدخل «شخص المسيح» حياتنا فتسقط في الحال كل مشاكلنا، ونرتفع في الحال إلى مستوى وصايا يسوع بدون مهارة شخصية على الإطلاق!! المرارة التي يذوقها الإنسان المسيحي في داخله من جراء التمزق اليومي حينما تصطدم نفسه

بوصايا المسيح و يقف عاجزاً تماماً عن اللحاق بها مع أنه يحبها، هي ناتجة من كونه يحاول أن يصل إلى وصايا المسيح بدون المسيح، وهذا مستحيل!... المسيح وضع لنا الوصية لكي نختبر بها وجوده «إمتحنوا أنفسكم، أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم إن لم تكونوا مرفوضين» (٢ كو١٣: ٥). لذلك يقول الرب «الذي يحبني يحفظ.وصاياي» (يو١٤: ٢١) بمعنى أن الذي يحبني هو الذي يستطيع أن يعمل وصاياي!!

شخص المسيح أولاً!! و بعد ذلك كل ما للمسيح!

المسيحي مطالَب دائماً، وفي كل لحظة، أن يعلن مسيحيته لغير المسيحي وللمسيحي بحد سواء. هذه المطالبة الملحة تجعله في توتر دائم لأنه يتحتم عليه أن يكون على مستوى الحق حتى يراه و يكشفه، وعلى مستوى الإيمان حتى يتصرف بمقتضاه قبل أن يعلنه، وإلا أصبح خزياً لنفسه ولمسيحه.

ولكن مَنْ ذا الذي يستطيع أن يعلن المسيح، والمسيح في قامته شيء لا يمكن بلوغه؟ فهو قمة كل ما في السماء وما في الأرض يجمع كل شيء في شخصه؟ ثم فوق ذلك كله هو الصورة المنظورة لله غير المنظور فمَنْ ذا الذي يستطيع أن يعلنه أو يشرحه؟ عقل الإنسان؟ أمر مستحيل، بلاغة ومنطق؟ أمر مستحيل. المسيح وحده هو القادر أن يعلن المسيح. حينما أستشعره يقترب مني أُلقي جميع أسلحتي أو هي تسقط كلها من تلقاء ذاتها، فهو وحده لسان حقي وإيماني الذي يتكلم فيَّ، أو حتى دون أن يتكلم فيَّ، فإنه قادر أن يعلن ذاته بطرق لا حصر لها و بسرٍّ لا يُنطَقُ به. فشخص المسيح قوة لانهائية تعلن ذاتها في الإنسان بدون أي جهد من الإنسان، بل أن جهد الإنسان هو المعطل الأكبر لإستعلان المسيح، الحاجة فقط ماسَّة جداً أن نستشعر قدومه لدينا وأن نستقبله بكل كياننا ثم نتركه يتكلم و يعمل فينا.

إعتراض الناس على مسيحيتنا لا يقوم إطلاقاً على شخص المسيح، ولكنه يقوم على عدم وجود المسيح في مسيحيتنا. لو كان المسيح «بلاهوته» كائن في حياتنا، ما اعترض إنسان قط على لاهوت المسيح!! الناس عثروا في المسيح لأننا وضعنا المسيح في حياتنا جنباً إلى جنب على مستوى الحاجيات الأخرى، على مستوى السعي لأكل خبز الجسد بل على مستوى المتعة والفسحة والتسلية والعلم والسياسة. فظهر المسيح الذي فينا أقل من قامته الحقيقية ألف ألف مرة؛ فإن كان المسيح إلهاً، لزم أن يكون أعلى وأعظم وأسمى من كل شيء في حياتنا، بل أعظم من حياتنا.

الحاجة ماسة جداً أن تكون مسيحيتنا هي المسيح نفسه، وليس مبادئنا أو أطماعنا أو كبرياءنا وخبثنا أو شهوتنا للظهور والتكريم والمجد الدنيوي الباطل، الذي نخفيه وراء اسم يسوع!!

الناس لا يكرهون المسيح قط. المسيح محبوب، وهو فعلاً «ابن المحبة»، والمحبة ذاتها بكل أعماقها التي يشتهيها كل إنسان. الناس يكرهون أخلاقنا وسلوكنا وصفاتنا المزيفة التي صنعناها بإسم المسيح كذباً ورياءً.

إن التفريق بين المسيحية والمسيح أصبح اليوم أكثر من كل العصور السالفة ظهوراً فينا بل وصراخاً ضدنا! لأن سلوكنا وأعمالنا وكلماتنا تخرج مسيحية فقط ولكنها لا تصدر عن المسيح قط، فهي ليست لها روح المسيح ولا رائحة المسيح الزكية، لذلك لا نتعجب إن كانت مسيحيتنا غير محبوبة!

الحاجة ماسّة جداً أن نتوجه إلى شخص المسيح مرة أخرى ليظهر في حياتنا، فتخرج نهضة صادقة تتلاشى فيها أعمالنا المزيفة وتظهر أعمال المسيح الحقيقية التي تستطيع أن تشهد له بدون تدخل من عبقرياتنا الميتة!... لأن الناس يريدون أن

يأتوا إلى المسيح نفسه وليس لأشخاصنا الترابية. هل يمكن أن نوافق على ذلك؟ إن المشكلة العظمى التي تعترض طريقنا إلى المسيح هي أننا نمسك بذواتنا ولا نمسك بالمسيح، وعند الخطر أو التعب تظهر أنفسنا ولا يظهر المسيح!

وأخطر ما في هذه الضلالة أن أنفسنا تظهر جيدة في نظرنا، لذلك لا نجد أي حاجة أن نترك أنفسنا لنمسك بالمسيح، فيظل المسيح الحقيقي مخفياً عن عيون الناس وأسماعهم!! وحتى إذا ظهرت أنفسنا أمام أعيننا أحياناً أنها حقيرة ومخادعة وكاذبة وتعيش في ضلالة، إذ تبشر بالمسيح والمسيح غائب عنها تماماً، فإنها لا تقوى على التغيير ولا تجد القناعة الكافية أن تجازف وتموت ليحييها المسيح لنفسه من جديد. لأن الحياة لحساب هذا الدهر لذيذة جداً ومعزية للنفس التي تطلب مجدها... وخصوصاً إذا أضافت إليها أقوالاً مسيحية، فحينئذ تأخذ صورة المجد النوراني المزيف ولا يستطيع أحد أن يكشفها إلا الذين فيهم نور يسوع الحقيقي!!... متى نؤمن بالآية: «فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بالمسيح يسوع رباً، ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع؟» (٢ كو٤: ٥)

كم من خدام وكارزين قدموا ذواتهم للناس متخفية في صورة تعاليم المسيح، فعثر الناس في المسيح ووقع اللوم والخزي ليس على أشخاصهم بل على شخص المسيح الضعيف فيهم!! مع أن الذي يشهد للمسيح يتحتم عليه بالضرورة أن يأخذ من المسيح و يعطي للآخرين. هذه هي روح الشهادة ومعناها، وهي تتم بتوسط الروح القدس العارف بكل ما للمسيح و يتوق توقاً أن يشهد له فينا كما ينبغي!! ولكن كم مرة أحزنَّا الروح القدس ومنعناه عن الشهادة عندما جعلنا شهادة يسوع تخدم أمجادنا ومنافعنا الخاصة؟ الحاجة ماسَّة أن نتحرر من ذواتنا، هل نقبل؟

ثم، مَنْ يقرأ سيرة يسوع المسيح ولا يشعر في عمق أعماقه أن المسيح هو أجمل

وأوضح صورة لله ؟ فإن كان الله هو كالمسيح ، فالله فعلاً إله محبٌّ للبشر حقاً وأبٌ حاني جداً ومقتدر بلا حدود ! «الذي رآني فقد رأى الآب .» (يو١٤ : ٩)

إن البشرية ستظل تعيسة حتى تجد الله ، ولن تجد الله إلا في المسيح . كان ينبغي أن يجد المسيح في حياتنا فرصة ليُظهر قدرته هذه السرمدية ولاهوته ليؤمن الناس بأنه ابن الله حقاً ليكون لهم به خلاص وحياة أبدية ، وليروا فيه الآب حقاً . ولكن نحن المسئولون عن تعطيل الإيمان بالمسيح بسبب تقديم ذواتنا بدل تقديم المسيح الحقيقي ، وهكذا تمجَّدت بشريتنا على حساب لاهوته !!

إن عمل المسيح الفدائي يتركز في النهاية في أن نكون مثله ، نحمل أخلاقه وصفاته ، عندما يملأ حياتنا ويملك علينا ، لا عن طريق التعليم والتهذيب ، ولكن كما يقول القديس بولس الرسول «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم .» (أف٣ : ١٧)

وعندما يحمل الناس المسيح وبالتالي أخلاق المسيح وصفاته ، فقد يكون هذا معناه أن البشرية تجاوزت نفسها ، وتجاوزت بالتالي كل عجزها ومرضها وموتها ، ودخلت في طورها الممجَّد الذي لا يمتُّ قط إلى ميراثها الترابي الميت . هذه هي الخليقة الجديدة للإنسان ، ثم هذه هي قدرة المسيح الإلهية أن يرفع الإنسان فوق ذاته فيتجاوز عجزه و يدخل بقوة المسيح وحياته الفعالة إلى مجال الفعل والحرية الإلهية ، فيستجيب الإنسان إستجابة حرة واعية فَرِحَة لله ولكل إيحاءاته بدون قصور و بدون كلل ، هذا هو مستقبل الإنسان الجديد في المسيح ، وهذا هو ميلاده الجديد . لذلك دُعي المسيح بحق آدم الثاني !!

إذن ، فكيف نولَد لله بدون مسيح ؟ هذا مستحيل .

ثم لا ننسى إطلاقاً أن المسيح أسَّس عمله في البشرية على أساس الصليب ، والصليب وإن كان قد دخل حياة المسيح كفعل فداء بالدرجة الأولى إلا أنه سلَّمه

لنا كنموذج حياة وسلوك . فالذي لا يعيش بمبدأ الصليب ولا يفكر بمبدأ الصليب ، لن يدرك عظمة المسيح التي بلغها بالصليب ، ولن يفهم و يقدّر معنى الفداء الحقيقي ، أما إذا اختبرنا الصليب في حياتنا وتذوقناه عن وعي وسرور، فإن ذلك سيكون المدخل السري لمعرفة المسيح ومعرفة عظمة قدرته الفائقة نحونا ! ثم من خلال شركة آلام الصليب ندخل مع المسيح في عهد أبدي كوارثين لكل أمجاد وتعزيات الآب في السماء .

يا لسرِّ المسيح ! بل يا لسر الإنسان في المسيح !

كلمة أُلقيت بكنيسة القديس أنبا مقار بديره العامر ببرية شيهيت مساء يوم السبت ٣٠ مارس ١٩٧٥م — ٢١ برمهات ١٦٩١ ش.

إن أعظم الإختبارات التي لفتت نظري بشدة في بكور حياتي المسيحية، هو أنني حينما أشعر بحاجتي إلى أشياء كثيرة تنقصني في معاملاتي مع الناس أو الكنيسة أو الرهبان، يبلغ بي الضيق والألم والحزن مبلغاً شديداً يضعف من نشاطي وخدمتي وتأثيري في الآخرين، ولكن بمجرد أن أقترب من شخص يسوع ربي وأحسّه وكأنه آتٍ من بعيد بعد غيبة أكون أنا دائماً السبب في طولها أو قصرها، أقول حينما أستشعره يقترب مني، يطفر قلبي فرحاً وينجمع عقلي مرة واحدة فيسقط عني كل إحساس بحاجاتي الكثيرة وعوزي ونقصي، ويرتفع المسيح فوق أفق حياتي كلها. حينئذ أراه هو أكثر من كل حاجاتي وأحس بملئه يفيض ويجرف حياتي في تيار حبه بتسليم يفوق العقل.



الثمن ٥٠ قرشا

(تخفيض خاص للكميات)